محاورات المـــوتى

المحاورة الرابعة

للكاتب الفرنسي برنار بوفيه دفونتنيل

بقلم الأديب يوسف روشا

سقراط ومونتين

سقراط : ولد في أثينا حوالى ٤٧٠ قبل المسيح وأشهر تلاميذه أفلاطون وإكزانفوف وألسيبيادس . ولقد هاجمه أرسطوفان هجوما عنيفا وسخر منه في قصته « السحاب » اتهم ظلماً في سنة ٣٩٩ ق م بإفساد الشبيبة بتعاليمه وقدم للمحاكمة فدافع عن نفسه بخطبة شهيرة أحنقت القضاة فحكموا عليه بالموت

مونتين : أديب فرنسي شهير ولد سنة ١٥٣٣ ميلادية ، وقد اشتهر بمقالاته التي تناول فيها رجالات المجتمع في عصره بالدرس والتمحيص . وإنك لتجد آراءه وتأثيره بأدبه في أغلب كتاب فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر . على أن تأثيره لم يقتصر على فرنسا بل تعداها إلى انجلترا ، حيث تأثر به الكاتبان الانجليزيان «شكسبير» و « بيكن»

المحاورة

مونتين : أأنت سقراط النبيل ؟ ما أسرني بلقائك ! لم يمض على قدومي هذه المدينة غير يسير ، ومنذ قدمت ما برحت أبحث عنك . وأخيراً ، وبعد أن ملأت كتابي باسمك وبالثناء عليك أستطيع أن أتكلم الآن معك وجهاً لوجه لأعرف شيئاً من تلك الفضيلة الساذجة التي اتصفت بها والتي لا نظير لها حتى في ذلك العصر السعيد الذي عشت أنا فيه

سقراط : يسرني جداً أن أرى شبحاً كان فيما يظهر فيلسوفا . ولما كنت قد هبطت إلينا منذ قريب ولم أجتمع بأحد هنا منذ بعيد ، لأني أعيش في عزلة تقريباً ؛ فهل تسمح لي أن أسألك. كيف حال العالم ؟ وهل تغير ؟

مونتين : لقد تغير العالم إلى حد أنك لا تعرفه إذا عدت إليه

سقراط : أنا مغتبط بهذا جداً . لقد كنت على يقين دائم بأن من الحتم أن يصبح عالمكم أحسن وأعقل من عالمي الذي عشت فيه

مونتين : ماذا تعني ؟ لقد أصبح العالم أحمق وأفسد مما كان عليه من قبل . ذلك هو التغير الذي إياه عنيت وإليه قصدت . وإني كنت منتظراً أن أسمع منك وصف العالم الذي عشت فيه وعاصرته وكان يسود فيه العدل والاستقامة

سقراط : وأنا أيضاً كنت منتظراً منك أن تصف لي عجائب العصر الذي عشت فيه وصفاً شاملاً . يا للداهية الدهياء ! أحق أن الناس لم يقلعوا حتى الآن عن تلك الحماقات التي كانت سائدة في قديم الزمان ؟

مونتين : يغلب على ظني أن انتسابك لذلك العهد هو السبب

في جنوبها ؛ وتقوم سواحلها على البحرين الأحمر والأبيض ، وللعرب فيهما أوسع المصالح وأكبرها ، ثم إن لها مقاماً علمياً وثقافياً وأدبياً لا يجارى ولا ينافس ، كل ذلك يجعل مصر زعيمة العرب ، فتقود شعوب الشرق العربي إلى المثل العليا

وأجد نفسي قد أطلت القول ، لذلك أرى أن خير ما أختم به حديثي اليوم هو أن أنقل إلى القراء خلاصة وجيزة عن مقال لجريدة التيمس الكبرى عن أطوار الوحدة العربية قالت : « إن تجدد المساعي لتحقيق الوحدة العربية بما يجري في هذه الآونة من مباحثات جدية بين حكومات الشرق العربي ليس في الواقع إلا ترديداً لصدى التصريح الذي أدلى به المستر إيدن في (مانشان هاوس) بشهر مايو عام ١٩٤١ وقطع فيه عهداً بتأييد أي مشروع يظفر بالاتفاق التام ويرمي إلى تعزيز الروابط الاقتصادية والثقافية والسياسية بين الدول العربية

وليس هنالك ما يحول دون تحقق مشروع الاتحاد العربي إذا استطاع العرب تسوية المسائل التي تعترض سبيلهم ، ولا سيما وإن المشروع يتألف من أقطار تجمع بينها روابط تاريخية وجغرافية وجنسية ولغوية ، ولم تفقد هذه الأقطار في الماضي روابطها واتصالها برغم الصحاري البعيدة التي تفصل بينها . وقد زاد تقاربها وقويت صلاتها بعد ظهور السيارة ، وأصبحت الصحراء كالبحر تجتازها السيارات دون مخاطرة » هذا ما يقوله الأجانب عنا ، وسنتحدث في الأسبوع المقبل عن مشاورات الوحدة العربية مع العراق .

(دمشق)

شعيب سعيد
المحامي

فى احتقارك إياه وتصغيرك من شأنه . ولكنى أعلمك أن ضياع تلك العادات والأخلاق لما يبعث الأسي والأسف ، ذلك أن الأمور تزداد سوءاً يوما بعد يوم

سقراط : أيمكن هذا ؟ إن الأمور فى زمانى كانت تبدو لى سيئة جداً ؛ ولكن لم يساورنى شك فى أنها ستتحسن على تعاقب الأجيال ، وأن الناس سينتفعون من تجاريب هذه السنين الطويلة

مونتين : أينتفع الناس حقاً من تجاريبهم ؟ إنهم لا يختلفون عن الطيور التى تقع دائماً فى الأشراك التى وقع فيها مئات الألوف من جنسهم قبلهم . كل امرئ يدخل الحياة مستقلاً ، فلا يستفيد الأبناء من حماقات الآباء

سقراط : ماذا ! لم يكن هناك من تجارب يستفيد منها الناس . وكنت أظن أن سيكون للعالم شيخوخة أقل سخفاً وعناداً من شبيبته

مونتين : الناس فى أى زمان شئت تحفزهم نفس الميول والأهواء التى لا سلطان للعقل عليها ، وحيثما كان الناس كان الطيش والحمق اللذان لا يتغيران أبدا

سقراط : إذا كان الأمر كذلك فلماذا تتصور أن الأقدمين كانوا خيراً من المحدثين ؟

مونتين : تلك طريقتك التى انفردت بها يا سقراط والتى أعرفها جيداً ... طريقة فى المحاورة والمداورة بارعة تشوش بها مناظريك وتقودهم إلى حيث شئت . وإنى لأعترف بأنى قد رأيت هنا رأياً يخالف ما كنت رأيت من قبل ولكنى مع هذا لن أسلم لك لأن رجالاً ذوى حزم وعزم وثبات كأرستيد وفوسيون وبركليس ولا سيما سقراط لا تجد لهم نظراء اليوم

سقراط : ولماذا ؟ وهل استنفدت الطبيعة قواها ولم يعد فى إمكانها أن تخرج رجالاً عظاماً ؟ ولماذا يصيبها العقم فيما عدا ذلك ؟ لم يتحط عمل من سائر أعمال الطبيعة فلماذا قدّر للرجال وحدهم أن يتحطوا ؟

مونتين : يبدو لى أن الطبيعة فى بداية أمرها أخرجت لنا نماذج من الرجال الممتازين لتقنعنا بأنها تعرف جيداً كيف تخلقهم إن هى أرادت ذلك ثم أهملت فيما بعد شأن الباقين فانحطوا وتدهوروا

سقراط : كن على حذر من هذه الناحية فلا تشتط . إن القديم فى ذاته شىء فريد ؛ وإن تقادم العهد يضفى عليه شيئاً من الروعة . ولو قدر لك أن تعرف أرستيد وفوسيون وبركليس وتعرفنى ، ما دمت تحب أن تعدنى منهم ، لوجدت فى زمانك رجالاً يماثلوننا . ولكننا عادة نميل إلى القديم ونتعصب له لأننا نكره زماننا ونمقته . فنحن نعظم القدماء لنحط من قدر المحدثين . ولقد كنا فى زماننا نذهب فى تقدير أسلافنا إلى أبعد حدود الغلو والإسراف ، واليوم بمجدنا أحفادنا أكثر مما نستحق ولهم كل الحق . وأكبر ظنى أن النظر إلى العالم من ناحية واحدة خليق أن يبعث فى نفوسنا السأم ؛ لأن العالم لا يتغير ولا يتبدل

مونتين : لقد كان يخيل إلىّ أن كل شىء فى العالم يتغير وأن لكل جيل طابعه الخاص الذى يتميز به ، وذلك كالناس ، فهناك أجيال اشتهرت بالعلم وأخرى بالجهل . أفلا يوجد ثمة أجيال كان طابعها الجد وأخرى كان طابعها الهزل ؟

سقراط : بلى

مونتين : إذن ما هو المانع من أن يكون هناك أجيال أكثر صلاحاً وأخرى أكثر طلاحاً من غيرها ؟

سقراط : ذلك لا يطرد ولا يستقيم مع ما نحن بصدده . فالملابس تتغير بتغير الأزياء ولكن ذلك لا يعنى أن شكل الجسم يتغير أيضاً . فالدمامة أو الخشونة ، والعلم أو الجهل ، والجد أو العبث ، ليست إلا مظاهر خارجية للرجل وكلها تتغير ، ولكن القلب لا يتغير ، وما الرجل إلا قلبه . فقد يشيع الجهل فى جيل ما ثم تعقبه نهضة علمية فتحل محله . ولكن الأنانية لن تزول من العالم مهما بذلنا فى سبيلها من جهد ، ذلك لأنها تصدر عن القلب . وإن من بين ملايين الرجال الضعاف القلوب لا تجود الطبيعة فى كل مائة عام إلا بعشرين أو ثلاثين من الرجال الواسعى العقول ، الكبيرى القلوب ، فتضطر إلى توزيعهم على جميع أنحاء العالم . ومن هذا تستطيع أن تحكم بأنه لا يمكن أن يوجد منهم فى أى مكان عدد كاف لنشر بذور الفضيلة والعدالة

مونتين : ولكن هل روعى العدل فى توزيع هؤلاء الرجال العقلاء النوابغ ؟ ألم يكن نصيب بعض الأجيال منهم أوفر من نصيب البعض الآخر ؟

سقراط : قد يكون هناك بعض الاختلاف ؛ ولكن الطبيعة على العموم تبدو منتظمة متسقة .

(بغداد) يوسف رشا